مقاربات في فلسفة اللغة بين ميشال دوسارتو و يورغن هابرماس.

عياد زدام محمد
مخبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها / جامعة تلمسان

لقد ظلت جدلية الفكر واللغة من أهم المسائل المطروحة للنقاش على الصعيد المعرفي عامة والفلسفي بالأخص، ذلك أنها المؤسسة لمنطق أي حوار، وهو موضوع هذا المقال مع الإشارة إلى وجهات نظر كل من يورغن هابرماس (1929...) و نظريته» أفعال الكلام»داخل ما يسمى البراغماطيقا العامة، وميشال دو سارتو (1925 1986) ونظريته «منطق الممارسات والإستعمالات»، محاولا تتبع أهم لحظات تطور هاتين النظريتين مع نقدهما.

الكلمات المفتاحية : اللغة، المنطق، الممارسة، التداول، التواصل، الرم، الحوار، الوضعية المنطقية، الفكر.

summary:

The Dialectic of thought and language is one of the most important issues to be discussing at the level of knowledge in general and philosophy in particular, that it Foundat the logic of any dialogue, which is the subject of this article with referening to the views of Jurgen Habermas (1929 ...) and his theory of «acts of speech» within the Universal Pragmatism, and Michel de Sartea u (1925 1986) and his theory of «the logic of practices and uses», trying to keep track of the most important moments of the evolution of these theories and criticing them.

The key-words :the Language. the Logic. Practice. trading. the Symbol. The Communication. the logical positivism .the dialogue. the thought.

نص المقال:

إن فلسفة التحليل، التي نشأت كرد فعل على الاتجاهات الفلسفية الكلاسيكية، وخاصة المذاهب المثالية بصورة عامه، هي فلسفة متنوعة ومتعددة الاتجاهات ومختلفة نوعا ما فيما بينها، وإن كان هناك قاسم مشترك بينها هو استخدامها للتحليل المنطقي اللغوي، منهجا لتوضيح وتدقيق المشكلات الفلسفية الناتجة عن غموض منطق اللغة «langage»، وكان لها دور رئيس في تقريب الفلسفة من العلم، عن طريق إخراج أشباه القضايا «pseudo proposition -» من الحقل المعرفي، لكن ومع كل ذلك وصلت هذه الأخيرة إلى عقبات مسدودة، فكانت النتيجة هي الانفتاح على العالم المعيش وتأويلاته، وظهور توجهات جديدة سواء لدى مفكري الجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت الألمانية التي مثلت اتجاها ماركسيا أكثر انفتاحا ومن أبرزهم يورغن هابرماس، أو لدى المفكرين الفرنسيين المعاصرين «ميشال دوسارتو» خاصة. فكيف كانت نظرتهما إلى اللغة من جانبيها المنطقي والأخلاقي؟

أ- المنعرج الألسني...العالم بوصفه بناءا رمزيا ولغويا:

لعَّل السمة البارزة في هذا العصر هي الاهتمام باللغة، والنظر إليها على أنها موضوع الفلسفة المفضل[1] تحولت

مهمة الفلسفة من البحث في الوجود، والقيم...إلى منطق للعلم، أو منهج تحليلي يهدف إلى التحقق من صحة ما نبحث عنه، وذلك وفقا لمعيار تجريبي منطقي، يؤكد ضرورة المطابقة بين المعنى والملاحظات الحسية، وأن ما لا معنى له كلام فارغ لا يعبر عن الحقيقة وبالتالي وجب إخراجه من دائرة المعرفة[2].

إن هذه الروح التحليلية العلمية، والمنطقية التي تتميز بها الوضعية المنطقية، ما كان لها أن تكون، لو لم يكن لها رصيد مستلهم من التطورات العلمية، والمنطقية، واللغوية التي عرفها القرن العشرين.

لاشك أن كل فرد له تصور ما حول العالم الذي نعيش فيه، تصور معين نتاج لإدراكه له، فهل معنى ذلك أن الفرد يقوم بإنتاج العالم تبعا لإدراكه له؟ هل العالم كمعطى بشيئيته المتنوعة وكثرته اللانهائية يعاد بناؤه حسب الإدراكات أو الأذواق؟ هناك رؤية شكلت مادة خصبة للعلم الحديث، وأيضا لفلسفة العلم، فكرة كارناب حول البناء المنطقي للعالم، لكن هذا التصور العلمي للعالم يختلف عن التصور العادي من حيث أنه يحمل القيم الموضوعية المنفصلة عن الاعتبارات الذاتية، ويستعمل لغة تقنية ورياضية من شأنها أن تضمن هذه الموضوعية، جاءت بعض التحليلات لتعيد النظر في هذا الفصل الجذري بين التصور العلمي والتصور العادي لترى في الصورة التي يحملها العلم عن العالم كامتداد للصورة العادية وتشتغل في أحضانها ورواد هذه الفكرة هم أمثال فتجنشتين وجلبرت رايل وبيتر ستراوسن[3].

إن فتجنشتين (1889 - 1951) يعتبر أن زيف بعض المشكلات الفلسفية، سببها سوء فهم اللغة، أي سوء فهم منطقها، وبالتالي فالمهمة الأساسية التي وجب البدء بها هي تبيان منطق اللغة، ذلك أن الصياغة النحوية للجمل تكون سليمة، وتبدوا كما لو أن قائلها وسامعها يفهمان معناها، في حين أنها غير سليمة منطقيا، وبالتالي لا تعني أي شيء، وهذا هو مصدر الخطأ.[4]

إذن فالعمل الذي توجب القيام به هو الاهتمام بالأقوال الخبرية التي تحتمل الصدق والكذب، في مقابل الأقوال الإنشائية (الجمل الإنشائية) التي هي مجموعة الرغبات والميول والاستفهام و»الكنايات والتشبيه، ومن ذلك فإن هذه الأخيرة هي التي تشكل: أشباه قضايا يقول راسل 1970- 1872) Russel) «إن الفكرة الأساسية للرسالة ربما تكمن في أن القضية هي تصوير للوقائع التي تثبتها، من الواضح أن الخريطة تعطينا معلومات صحيحة، وذلك لأن هناك تماثلا بين بنية الخريطة والمنطقة التي تمثلها» [5]، وكان ذلك في سياق حديثه عن نظرية اللغة عند فتجنشتين، وفي «منطق الكشف العلمي» أكد كارل بوبر على وجود الآليات المنطقية التي من شأنها البث" يمكن البث في ما إذا كانت نظرية ما قابلة للتفنيد أم لا في كل الحالات وبوسائل منطقية صرفة وبالتالي بيقين تام"[6] وفي هذا القول نجد وجهات تقارب مع تصور فتجنشتين الأول لما وجب أن تكون عليه اللغة. من تحديد طوبوغرافي زماني ومكاني بحيث يقول: "There are no pictures, that are true apriori"[7]، أي "لا توجد هنالك صور صحيحة قبليا". إن مقولات التراكتاتوس بهذا المعنى ضربة عميقة للميتافيزيقا التي تتحدث في الأبعاد اللازمانية واللامكانية باستخدام حمالات الأوجه، وحدود من مستويات مختلفة.

لقد كان الفيلسوف الألماني "غوتلوب فريجة" (1848 - 1925) G.Frige رائد الاتجاه التحليلي من خلال التحليلات التي أجراها على العبارات اللغوية، وعلى القضايا، وكان لتمييزه الحاسم بين مقولتين لغويتين تتباينان مفهوميا ووظيفيا وهما: اسم العلم والاسم المحمول، وهما عماد القضية الحملية، وذلك في كتابه: "أسس علم

الحساب"، فاسم العلم في نظرية فريجه هو الذي يشير إلى فرد معين، أما المحمول فإنه يقوم بوظيفة التصور، ولقد ميّز فلاسفة الوضعية المنطقية بين وظيفتين رئيسيتين للغة: الوظيفة المعرفية (Cognitive والوظيفة الانفعالية (émotive)، ومحتواها أن الإنسان يستعمل اللغة لإخراج الانفعالات التي تضطرب بها نفسه، والعبارات هنا هي تلك التي تتناول مسائل الأخلاق والميتافيزيقا، واعتبروا العبارات الأولى ذات معنى ووصفوها بالمنطقية، في حين اعتبروا الثانية لا معنى لها وخاوية من أي مدلول، بحجة أننا لا نجد لها مطابقا في الواقع، ولم يكن هناك مناص من الحكم على أنماط أخرى من العبارات لأنها زائفة Statement – pseudo[8]، و هذا ما اعتبره جون أوستن J.Austin المغالطة الوصفية Descriptive Fallacy، إذ ما الذي نفعله بكل أنواع العبارات الأخرى التي لا تقوم بوصف العالم الخارجي ولا علاقة لها البتة بقيم الصدق والكذب، ماذا نحن فاعلون بالجمل الطلبية (الأمر والنهي) والجمل الاستفهامية..؟

هذا التساؤل نجده عند فتجنشتين -المتأخر- إذ يقرر أنه من الخطأ القول بأن الوظيفة الوحيدة المشروعة للغة هي الوصف أو التسمية، لذا تجاوز ذلك إلى نظرية الألعاب –ألعاب اللغة – ليبرر تنوع استعمال اللغة، هذه النظرية الأخيرة، أي الألعاب اللغوية، التي تعتبر الرحم الشرعية التي نتجت منها المقاربة التداولية، والتداوليات اللغوية بصفة عامة، وبالضبط نقده القوي الذي وجهه للوضعية المنطقية في كتابه: بحوث فلسفية Invistigations Philosophic، وتجاوزه لأفكاره الأولى عن اللغة الاصطناعية التي بثها في "الرسالة المنطقية الفلسفية" Logico-Tractatus phil-osophicus إلى التأسيس لنظرية الألعاب اللغوية التي تنطلق من فلسفة للغة العادية، ذلك أن تصورات الوضعية المنطقية وفتجنشتين الأول -في كتابه الرسالة –قد فشل في مهمة القراءة الرياضية المنطقية للغة العالم، وعاد إلى اللغة العادية، ويمكن الافتراض أن انهيار الوضعية قد ترك الطريق مفتوحا أمام انبعاث الأفكار العقلانية، ومن المؤكد أن كلمة الميتافيزيقا لم تعد بغيضة بين الفلاسفة المعاصرين[9].

أسهم الفيلسوف الأمريكي تشارلز سندرس بيرس Ch.S.Pears (1814 - 1939) بقسط وافر في بلورة النظرية التداولية، وذلك من خلال منظومته السيميائية وفعالية الذوات في رؤيتهم للعالم، والإدراك الحاصل عن هذه العلاقة عبر رؤية كونية شاملة، ويؤكد فريجه أننا لا نرضى بالمغزى وحده بل نفترض قبلا وجود الإحالة، هذا ما مهّد لأوستن القيام بتصنيفه للأفعال الكلامية والقول بها رأسا، فهو يميز بين الأفعال التعبيرية والأفعال التمريرية، والفعل التمريري هو أصغر وحدة متكلمة في الاتصال اللغوي الإنساني، وحينما نتكلم أو نكتب لبعضنا فإننا نؤدي أفعالا تمريرية، وهي الغاية الخاصة من تحليلنا عن الآثار والنتائج التي يمكن أن تسفر عنها الأفعال التمريرية في المستمعين[10].

إن هذا الفتح الذي استهله بيرس، مع الإشارة إلى اسهامات جورج زيمل -الذي يعتبر أول من أشار إلى ضرورة الأخذ بالبعد التفاعلي للغة – كانت تكونات سوسيو-ثقافية انطلقت منها تحليلات مدرسة فرانكفورت النقدية التي يعتبر هابرماس من رواد جيلها الثاني.

ب - من التحليل المنطقي للغة إلى التداوليات الصورية عند هابرماس:

إن اهتمام "هبرماس" باللغة والمعنى والحقيقة والتواصل والبرهنة المرتبط بشكل أساسي بإشكاليته المركزية المتعلقة بالعقلنة والحداثة، استدعى منه تطويره وتعميقه بتلك القاعدة النظرية التي ينعتها بالتداولية الكلية Pragmatique Universelle والتي يرى وظيفتها تتمثل في إعادة بناء شروط (الإمكان الكلية للتفاهم)، على اعتبار أن كل فاعل تواصلي يقوم بفعل للكلام مضطر للتعبير عن ادعاءات الكلية للصلاحية على أساس أنه يقدر على تبريرها

للمشاركة في أي عملية من عمليات التفاهم، بمعنى آخر أنه يتعين على كل متكلم تعبيرا معقولا لكي يتمكن المتكلم أو المستمع من تفهم الواحد للآخر، والمتكلم يجب أن تكون له نية توصيل مضمون قضوي حقيقي لكي يتمكن المستمع من مشاطرة معرفته، وعلى هذا المتكلم أيضا أن يبرز عن مقاصده بصدق لكي يتمكن المستمع من تصديق تلفظ المتكلم، وأخيرا يتعين على المتكلم اختيار تلفظ دقيق بالقياس إلى المعايير والقيم الجاري بها العمل لكي يتمكن المستمع من قبول هذا التلفظ بطريقة تجعل المتكلم والمستمع في وضعية القدرة على الاتفاق على التلفظ ذي الخلفية المعيارية[11]، فمشروع البراجماطيقا العامة إذن هو إعادة بناء التعامل (التفاعل) التواصلي المثالي.

وقد ذهب "هابرماس" إلى أن هناك تمييزا جوهريا بين اللغات التي تستخدم وفقا لكل من هذه العوالم، أو داخل سياقها، يقول "هبرماس": "في عرضه المقدم سنة 1967 حول نظرية المعرفة بلا عارف يطرح "بوبر" اقتراحا مدهشا: "يمكننا التمييز بين العوالم الثلاثة: أولا: الأشياء المادية أو الحالات المادية، ثم عالم الحالات الشعورية أو الحالات العقلية، أو ربما الاستعدادات السلوكية للتصرف، وثالثا عالم المضامين الفكرية الموضوعية، وبخاصة عالم الأفكار العلمية والشعورية والتحف الفنية "[12]. فأعاد صياغة مفهوم اللغة التي تستخدم كفعل اجتماعي، أي كفعل كلامي (إنجازي / إنشائي)، وقسم بنية هذه اللغة إلى ثلاثة مكونات: قضوي، تعبيري إنجازي / إنشائي[13].

الهاجس الذي يحرك تفكير هابرماس بخصوص الحقيقة، فإنه يتعلق بالفرضية الأساسية لنظرية "الحقيقة - التطابق"، وهو يصوغ سؤاله بالطريقة التالية: "ما هي العلاقة الموجودة بين الوقائع التي نثبت وموضوعات تجربتنا؟" ويقول هابرماس إنما يحق لنا إثباته، نسميه واقعا، والواقع هو ما يشكل حقيقة ملفوظ ما، لذلك نقول بأن الملفوظات تترجم وتصف و تعبر عن وقائع، ويعتبر هابرماس أنه في سياق البرهنة يمكن أن نعتمد على التجربة، ولكن لكي نعتمد منهجيا، على التجربة، في حالة التجريب مثلا، فإننا نضطر للرجوع إلى تأويلات لا يمكن أن تتضح صحتها إلا داخل المناقشة، وبالتالي فإن التجارب تصبح كقواعد استنادا لادعاء الحقيقة التي تعبر عنها التأكيدات، وطالما لا نواجه تجارب غير مطابقة، فإننا نتمسك عموما بهذا الادعاء للحقيقة، غير أن هابرماس، يرى أن كل ذلك لا يكتسب مصداقيته إلا بواسطة براهين لأن ادعاء مؤسسا على التجربة ليس ادعاء مبررا بشكل مباشر، ويعترف هابرماس أن مفهوم الحقيقة في التراث الفلسفي كان دائما يأخذ بعدا أكثر تجريدا واتساعا مما يسميه ب "حقيقة الملفوظ " وكثيرا ما اتخذت الحقيقة معنى "العقلانية" غير أن هابرماس يحدد ما هو عقلاني ليس فقط بالإثباتات، ولكن أيضا بنماذج أخرى من أفعال الكلام مثل المعايير والأشخاص، ويعتبر هابرماس أن هناك على الأقل أربع أنواع من ادعاءات الصلاحية وهي المعقولية، الحقيقة، الدقة، الصحة، وهذه الإدعاءات تشكل كلا يمكن تسميته بـ: "العقلنة" ولهذا السبب يرى هابرماس أن نظرية إجمالية للحقيقة" يجب أن لا تقتصر على حقيقة الملفوظات لأن المسألة تدخل فيها اعتبارات الدقة والصدق والمعقولية، ثم إن الإجماع يكمن بالضبط في كون هذه الادعاءات الأربعة يجب أن يكون معترفا بها من طرف المتكلمين المشاركين في المحاورة أو المناقشة[14].

وهكذا يمكن أن تدعى معقولية التلفظ، وحقيقة تكوينه القضوي، ودقة تركيبه التلفظي وصدق النية المعبر عنها من طرف المتكلم، ومن ثمّ فإن تواصلا غير استراتيجي، أي ذلك الذي يحصل فيه تفاهم سيجري بدون اصطدام.

لقد قدّم كارل أوتو آبل karl.otto.apel -وهو يمثل ما يسمى بالتداولية البرغماتية الترانسندنتالية-

مجموعة من الإنتقادات الموجهة لهابرماس بشأن "اعتراضه على الاختلاف المبدئي والجوهري من وجهة النظر الإبستيمولوجية والمنهجية، الذي يقابل بين المنطوقات الممكنة للعلوم الاجتماعية التجريبية المؤسسة (مثال ذلك: المنطوقات الإفتراضية لألسنة تشومسكي[15] chomsky على الجوامع اللغوية) والمنطوقات الكلية للفلسفة "[16]، كما انتقده من حيث استخدامه لمبدأ بوبر حول قابلية الخطأ، المبدأ القابل للتطبيق على ذاته وقد ذكر آبل اعتراضات أخرى بقوله "لقد اعترف هابرماس في كل ما قاله بدءا من نظرية الفعل التواصلي عن المكان العقلي لموارد العالم المعيش، أن الفهم المسبق للعالم كما يقر بذلك أيضا غادامير وأتباغ فتجنشتين، مرتبط بجماعة محددة لشكل معين من الحياة[17]، بهذا الإرجاع لجميع مصادر التفاهم المتبادل إلى الصورة الخلفية لعالم معيش متجسد دائما منذ البدء، كما كان هيدغر يقول "إنه دائما عالمنا"[18]، وسأعود للحديث حول هيدغر لاحقا في فقرة أخرى من هذا المقال.

ومن جهة أخرى فإن التجربة التداولية التي ينظر لها هابرماس عبارة عن نسق من القواعد ذو تنسيق منطقي تساعد على إقامة تعبيرات لدرجة أن كل تعبير مصاغ بالشكل الصحيح يعتبر عنصرا من عناصر اللغة، ومنه فإن الذوات القادرة على استعمال هذه التعبيرات تشارك طبيعيا في العملية التواصلية باعتبارها تفهم الخطاب، وقد أسهمت نظرية فتجنشتين في فلسفة اللغة العادية في بلورة نظريات نقدية للمجتمع قائمة على معايير دقيقة دقة المنطق الذي يمثل ضمانا للصلاحية والمصداقية.

إن هابرماس يريد الإشارة مباشرة إلى ضرورة وجود بعد أنطلوجي للفهم عدى الفهم العلموي المنهجي سائرا في ذلك على خطى هيدغر، وهو ما نجده أيضا لدى غدامير gadamerالذي يقول: "ليس الفهم مجرد إعادة إنتاج المعرفة، بمعنى انجاز معرفي يتكرر، وانما هو هذه المعرفة الواعية بانجازاتها المتكررة "، والمعرفة المشار إليها هاهنا تأخذ بعدا تواصلي جمعوي، بل أن الوعي هو الآخر يتّخذ شكله الجمعوي المترسخ بقيم الاعتراف، وهو قبل كل شيء "اعتراف متبادل" بين ذاتين أو وعيين. فهو بالأحرى "تعارف" يتجاوز المعرفة البسيطة حول الشرط الإنساني للآخر. عندما نكتب مفردة "الاعتراف" بالفرنسية Reconnaissance فإننا نلاحظ عنصرين في المفردة: البادئة Re التي تفيد التكرار ومقولة connaissance وهي المعرفة.

فهل الاعتراف على الصعيد اللغوي والاشتقاقي هو معرفة تكرارية للآخر أو بالأحرى معرفة غير مكتملة حول الغيرية؟ إنه السؤال الفلسفي الأول حول الاعتراف بوصفه معرفة ناقصة وغير مكتملة لأن "الآخر سرّ" كما يقول جاك دريدا. فالاعتراف به ممكن وهو المعرفة ولكن الإحاطة به مستحيلة لأنه يتعذر الولوج في قصدياته المتعالية، الاعتراف هو قبول الغير كآخر يتعذر اختزاله. عندما أقول "أعترف" فإنني لا أؤكد فقط بأنني "أعرف" ولكن أيضا بأنني "أقبل"الغير[19].

ج- الفكر بوصفه إنصاتا...ومسألة المجاوزة:

للإقتراب من مسألة "المجاوزة" عند هيدجر لابد من التفكير في السؤال الذي طرحه هو نفسه بصدد مفهوم الفكر، وهي مسألة جوهرية متعلقة أساسا باللغة بأشكال ومستويات متعددة، فما هذا الذي نسميه فكرا؟ وما الذي يحث نباهتنا على التفكير؟ إنهما مشروع وسؤالان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فكيف نقترب منهما؟

يرى هيدغر أن "الفكر انصات" إلى "نداء الوجود". نداء ليس في مقدور الإنسان العادي أن ينصت إليه،

نداء – صوت يأتي صوب المفكر والشاعر بوصفهما صاحبي رسالة تكمن في حراسة حقيقة الوجود ورعايتها. إن هذا النداء – الصوت يعمل على انتشال الإنسان من التيه والضلال بغية الانتباه إلى هذه الحقيقة، حقيقة الوجود من أجل حفظها وصيانتها قبل نقلها إلى الكلمة ورعايتها. وبهذا الحث أو الإنتشال ننفلت من حالة هؤلاء الذين يفعل فيهم القدر ما يشاء.

إن رؤية هيدغر هذه إلى الفكر وإلى الحقيقة تطرح معها مشكلة الحرية، حرية الذات وقدرتها على تقرير مصير الفكر. وإلا فما الحرية إن لم تكن حرية الذات؟ ثم كيف يمكن التفكير في حرية لا يقر في مصيرها بشكل ذاتي؟

يتجاوز هيدغر مفهوم الحرية كما تحدد في القرن الثامن عشر أو كما تساءل حوله كانط حين طرح سؤال "ما الأنوار"؟ وذلك لأن الفكر عند هيدغر ليس مجرد انتزاع تجريدي مفهومي، كما أنه ليس هو الحركة الذاتية للمفهوم كما تصورها هيجل، أو أنه حدس تدركه الروح كما هو الأمر عند ديكارت. ليس الفكر عمليات منطقية – حسابية أو قواعد منهجية – إجرائية كما يدعي الفكر العلمي – المنطقي اليوم. فلم تكن معضلة التفكير الكبرى – في نظر هيدغر– هي معضلة المنهاج، أو أنها مسألة انتظام المعرفة طبقا لقواعد المنطق[20].

إن الفكر عند هيدغر لا يرتبط بالملكات أو القدرات أو الوعي أو القدرة على اكتساب منهج علمي، لأن الفكر ليس ذاتيا، وليست "القواعد" التي ينبغي أن يخضع لها الفكر "قواعد منهج " أو " قواعد المنطق والحساب الرياضي"، بل إن ما ينبغي أن يستجيب له نداء الوجود وقوله والتعالق معه. وبهذا يصبح الفكر قولا وإنصاتا أو صدى لهذا الذي يستجيب له، ويشد الوثاق نحو هذا الذي أثار السؤال.

من هنا يتوحد عند هيدغر، تاريخ الفكر وتاريخ الوجود، ويعتبر أن لهذا الأخير مقاله الخاص، مقال تكون كتابة المفكرين صدى له، فيقطن لغتهم.

أن ماهية فعل التفكير تتأسس على المهمة المسندة إلى المفكر أو الشاعر، مهمة حراسة حقيقة الوجود ونقلها إلى الكلمة وإلى الزمان وصيانتها. غير أن هيدغر يرى أنه لا يمكن للفكر أن يقوم بمهمته هاته إلا بتمهيد لابد منه، يتمثل في تقويض أرض الميتافيزيقا وفلح التربة التي تقيم عليها الفلسفة جذورها، وهو تمهيد يتم من خلال التفكير في "القضايا" الثلاثة الآتية وبها:

1- القفز من أجل التعالق مع الوجود.
2- القيام بخطوة إلى الوراء أو الاستذكار الذي يمكّن من تملّك لميتافيزيقا.
3- فعل تسجيل ونقل الوجود إلى اللغة[21].

إننا ونحن نتأمل هذه "القضايا" يتبين لنا منذ الوهلة الأولى أن هيدغر يرى أن مجاوزة الميتافيزيقا كتمهيد يضع اللبنات الأولى لتفكير ينصت إلى نداء الوجود، لا تتم من "خارج" الميتافيزيقا نفسها[22].

ميشال دوسارتو والفضاء التواصلي متعدد الأبعاد:

إن الفرضية الإبستيمولوجية التي تبناها دو سارتو والتي تجمع بين العلم والخيال والإستراتيجية والتكتيكية أو الخطاب التاريخي والأسلوب السردي تهدف إلى بلورة ما يسميه بـ: "سياسة التفكير" التي تذكر المؤرخ بأن ممارسته لا تخلو من هذا المزيج "الأكسيوموري" من العلم والخيال، وأن ممارسته تنخرط أيضا في لعبة العلاقات الحاضرة

التي تدير الذاكرة وتوزعها، يتحدث دو سارتو عن ضرورة ما يسميه بإعادة تسييس العلوم، بمعنى إعادة ربط جهازها التقني بحقول العلاقات في القوة التي تنتج فيها الخطابات وتشتغل العمليات. تنخرط الممارسة في "تاريخية" المكان الذي تشتغل فيه وهو مكان مفتوح على الزمن وتخترقه علاقات في الإرادة المعرفية والسلطوية التي تحاول إدارة الزمن الفوري والعابر وإخضاعه إلى مكان الأداء العلمي والتقني. تكمن إعادة التسييس العلمي في إرجاع كل خطاب علمي أو نظري إلى شروط إنتاجه. كذلك على المؤرخ أن يشتغل على خطابه ويمتحنه باستمرار ليمنحه اللياقة الإبيستمولوجية والتجدد النظري: "يصبح عمله عبارة عن مختبر حيث يمكنه تجريب كيف أن الرمزية ترتبط بالسياسة[23].

وهو أمر أشار إليه دو سارتو في مائدة مستديرة حول جورج دوبي جمعت جوليا كريستيفا وجاك بوني ومؤرخين آخرين، حيث استحضر الوظيفة الرمزية التي "تستعمل العلاقات المعقدة بين الممارسات الاجتماعية والممارسات الدلالية، فالممارسات الدلالية تتيح للمجتمع بأن يعي أن هناك أمرا ضمنيا ينظم الممارسات، وأن شيئا جوهريا يحدّد الممارسة العلمية للخطاب التاريخي: ما يدرجه المجتمع في اللغة يميز الفراغ الملاحظ في ترابط الممارسات الصامتة في أغلبيتها ويقوم بملأ الفراغ، ولهذا الترابط قيمة رمزية لأنه يربط بين نصفين أحدهما ظاهر أو جلي وهو الممارسات الصامتة[24]، والآخر باطن وخفي وهو الغائب أيا كان شكله أو طبيعته (الماضي، الموضوع، الذاكرة،... إلخ)، وهو أمر تنم عنه القيمة الاشتقاقية لكلمة "الرمز": يمكن تعريف الرمز مع أندري لالاند على أنه كل علامة ملموسة تستحضر، عبر رابط طبيعي، شيئا غائبا أو يستحيل إدراكه، إن هذا الاستحضار للرمز يحمل دلالة مزدوجة، الأولى مثالية والثانية وجودية، وهاهنا يكمن تملصها، يقول ليفيناس "إن كشف الصلة العميقة بين المثالية والوجودية هو أحد أكثر الأدلة شدّة في التملص"[25].

تكمن خاصية الرمز في إبراز ما هو خفي وفي إعطاء ما ينقص المجتمع صيغة يحدّدها تنظيم الممارسات: الرمز هو إذن تمثل يكشف عن دلالة سرية، فهو مظهر السر، يعقد "الرمزي" علاقة وثيقة بالسرد الذي ذو قيمة أدائية، لأن السرد "في السياسة كما في التجارة، يوهم وبالتالي يدفع إلى الفعل، يرفع من شأن هذا ويشوه سمعة ذاك، ويصنّف، فهو ينتج النسيان ويؤسس الصمت بشأن ما لا يعبر عنه. وبحكم امتلائه وانغلاقه فهو ينسي بأنه يسكت عن أشياء، فتحت هذين الشكلين تقوم السردية بخلق التاريخ. كذلك يتبدى الرمزي الذي يرتبط بالسردي في تأسيسه للواقع في عنصر الخيال الذي يظل ضمنيا في العمل الإسطوغرافي للخطاب التاريخي، وليس الخيال أباطيل كما توهمه المفردة ولكن ارتباط الممارسات بفضاء مخيالي أو إيديولوجي[26].

ولا شك أن الطابع الخيالي هو نابع من كون العلاقات بين الحدود هي وهمية ليس بمعنى أنها خرافية لكن بمعنى أنها "معدومة". فنرى الحدود ولا نرى العلاقات فيما بينها، ولهذا الاختفاء في العلاقات قيمة رمزية، وكانت ميراي سيفالي قد أوردت بعض الملاحظات التي أبداها دو سارتو بشأن الخيال الذي يعتبره كقيمة رمزية لا يستغني عنها العلم في مساره التاريخي والموضوعي[27].

ويعزو دو سارتو إلى الخيال صيغة تنظيمية لأنه نمط تنظيم الدوال انطلاقا من علاقات وتركيبات داخلية. والخيال هو باختصار انخراط الواقع في الخطاب أي عندما تتحول مادية الواقع إلى قيمة رمزية في شكل حسابات أو كتابات، أي معادلات أو سرديات، وعندما يصبح أيضا ممارسات وأداءات. الخيال هو جعل الانفعالات أو المشاعر

في قلب العمل التقني والخطاب العلمي ولهذا الجعل وظيفة رمزية تدرج الخفي من الأفعال "المشاعر، الرغبات، الإرادات، القوى، إلخ" في الجلي منها" النظر، التحليل، الأداء المخبري، التحقيق الوثائقي، إلخ "[28].

وقد سمحت له الصرامة الإبستمولوجية باكتشاف شهية كبيرة في مهنة المؤرخ نحو التفاصيل، واكتشاف أركيولوجية المفرد الحامل لتنوع الواقع. وحسب دو سارتو "التفكير هو المرور penser, c'est passer . أي ترجمة الفكر إلى فعل، والفكر يتطلب الأداء: تقحم هذه الممارسات علاقات عقلية شعبية، وهي طريقة للأداء، وهي فن تنسيق غير قابل للتجزئة، فن لغرض الاستعمال. إن المرور الذي يتكلم عنه دو سارتو يعني الحركة وتغيير الديكور.

وهذا التساؤل يجيب عن تساؤل ميشال فوكو: كيف وإلى أي مدى قد يكون ممكنا التفكير بنمط مختلف؟ التفكير بنمط مختلف هو البحث عن سياسة جديدة للفكر لا تتخلص فقط في ما يخزن عقليا، وفي الفلسفات الحديثة، الفكر صوري ومجرد بشكل صرف "ديكارت، كانط ..."، ومع أفول نجم العلوم الإنسانية وظهور فلسفات الشك، فقد الفكر بعده الانعكاسي، علاقة الذات بالذات في إطار حضور صرف ومتعالي، لينفتح على الفعل كما تشهد على ذلك مفاهيم الممارسة الخطابية، ونظرية أفعال الكلام "أوستين وسيرل" والعقل التواصلي "يورغن هابرماس"[29].

لا تقيم تحليلات ميشال دو سارتو الاختلاف التمييزي بين موضوع العلمية والكاتب العلمي نفسه ، إن العمل على الموضوع هو عمل للذات، وهذه الأخيرة تميل إلى إخفاء شروط إنتاجها العلمي لإعطاء قيمة" هنا نستعير مصطلح فتجنشتين: التسامي والصعود للموضوع الذي تعالجه، ومن هنا قراءة ميشال دو سارتو للفعل البشري بمقاربة بوليمولوجية polémologique.

وأكثر من كون البوليمولوجيا علما بسيطا للحرب يمثل سمات الصراع عموما "أقام أسسه العلمية غاستون بوثول في كتابه دراسة في البوليمولوجيا .حيث تتبع خطوط علم الصراع بشكل عام، ومثل تقسيم كلمة التاريخ عند ميشال دو سارتو إلى شطرين، التاريخ Histoire والكتابة Écriture والبوليمولوجيا هي حاضرة بقوة من خلال هيئة مزدوجة تتركب من الصراع والخطاب "خطاب حول الصراع[30].

مما سبق ذكره ولحوصلة الموقف نقول أن على الفكر أن يتخذ معنى الفعل، أي بمعنى أنه يجب أن يتخذ معنى أداتي ووظيفي، اللغة هي تجلي إنساني، إنها مرآة عاكسة، سواء على المستوى الإبستيمولوجي أو على المستوى السوسيو-ثقافي، فإنها تحمل أبعاد انعكاسية وغير محققة، وهو مصدر بهائها الدائم.

قائمة المراجع :

– Bertrand Russel : Histoire de mes idées philosophique, Georges Auclair, éd : Gallimard, Paris, 1961, p141.

بالإنجليزية:

- J.Warnock, English philosophy since 1900, oxford university press, London, 1958.
– Ludwig Wittgenstein, tractatus logico-philosophicus, pub, 1922.
- لوذفيج فتجنشتين، بحوث فلسفية، ترجمة: إسلام (عزمي)، (د ذ) ط، (د ذ) سنة.
- إيمانويل كانط: نقد العقل المحض ، ترجمة موسى وهبة ، مركز الإنماء القومي ، (د ط)، (د سنة).

- برتراند راسل: ما وراء المعنى والحقيقة، ترجمة قدري عمارة (محمد)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005.
- كارل بوبر: منطق البحث العلمي، ترجمة: محمد البغدادي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006.
- أحمد موساوي: مكانة المنطق في الفلسفة التحليلية المعاصرة، سلسلة دراسات منطقية معاصرة، ج1، معهد المناهج، الجزائر، 2007.
- الجيلالي دلاش: مدخل السيميائية التداولية، ترجمة: بحياتن (محمد)، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1994.
- محمدماهر عبد القادر علي: فلسفة التحليل المعاصر: دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1985.
- صلاح الدين عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، ط1، 1995.
- حامد خليل: المنطق البراجماتي عند تشارلز سندرس بيرس، دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1994.
- جون سيول: العقل واللغة والمجتمع، ترجمة الغانمي (سعيد)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006.
- نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، نموذج هابرماس، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 1998.
- محمد بوزيان دليل وآخرون، اللغة والمعنى، منشورات الاختلاف، ط1، 2010.
- الشريف زيتوني، إشكالية حصر وظيفة الفلسفة في التحليل المنطقي للغة العلم، في مجلة أيس، منشورات دار الأخبار للصحافة، ع 4 ، الجزائر،2011.
- محمد شوقي الزين، الثقاف في الأزمنة العجاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014.
- محمد شوقي الزين، الإزاحة والاحتمال، منشورات الإختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2008.
- جون غوتنغهام، العقلانية، تر: محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط1، 1997.
- كارل اتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، تر: عمر مهيبل، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2005.
- محمد طواع، هيدغر والميتافيزيقا مقاربة تربة التأويل التقني للفكر، إفريقيا الشرق،2002.
- محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013.
- جوبل هنسل، لفيناس، من الموجود إلى الغير، تر: علي أبو ملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر ط1، 2008.
- محمد شوقي الزين: «الفكر والفعل في التصور السوسيولوجي عند ميشال دوسارتو»، تر: محمد بكاي، سمات، العدد4، ماي 2016.

الهوامش:

1 J.Warnock, English philosophy since 1900, oxford university press, London, 1958,p111

2 الشريف زيتوني ، إشكالية حصر وظيفة الفلسفة في التحليل المنطقي للغة العلم ، في مجلة أيس، منشورات دار الأخبار للصحافة،ع 4 ، الجزائر،2011 ، ص 38.

3 محمد شوقي الزين، الثقاف في الأزمنة العجاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص432.

4 دليل محمد بوزيان وآخرون، اللغة والمعنى، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2010، ص 172.

5 Russel, Bertrand, Histoire de mes idées philosophique, trad: Georges Auclair, éd : Gallimard, paris, 1961, p 141.

إن المنطق في أصله هو النظر في العمليات التي يجريها الفكر، فهو يحلل استدلالاته العادية كما ترد في عباراتها اللفظية، وذلك لاستخلاص القواعد التي تتضمن صحتها، فهو بهذا المعنى علم استدلال، فالمنطق يضع المبادئ العامة التي يجب أن يراعيها الإنسان حينما ينتقل من أمور يعرفها أو يسلم بها إلى أمور أخرى تلزم عنها، ولو وضعنا هذا المعنى العام موضوع اعتبار لتبين لنا أننا نمارس بالفعل هذا النوع من التفكير المنطقي، فنحن حين نحاول حل أية مشكلة فكرية أو علمية، أو ندخل في جدل أو مناقشة، فإننا نمارس في الواقع تفكير منطقيا، بدرجات متفاوتة.

6 كارل بوبر، منطق البحث العلمي، تر: محمد (البغدادي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006، ص527 .

7 Ludwig Wittgenstein : tractatus logico – philosophicuc, pub, 1922, 3,03.

8 صلاح الدين عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، ط1، 1993، ص 135.

9 جون غوتنغهام، العقلانية، تر: محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا ط1، 1997، ص126.

10 جون سيرل، العقل و اللغة و المجتمع ، تر : سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط1 ، 2006 ، ص202.

11 دليل محمد بوزيان وآخرون: مرجع سابق، ص305.

12 المرجع السابق، ص306.

13 المرجع نفسه، ص309.

14 نور الدين أفاية، الحداقة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، نموذج هابرماس، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 1988، ص65.

15 كارل اتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، تر: عمر مهيبل ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005، ص28.

16 المرجع نفسه، ص29.

17 المرجع نفسه، ص31.

18 المرجع نفسه، ص32.

19 محمد شوقي الزين، الإزاحة والاحتمال، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2008، ص.

20 محمد طواع، هيدغر والميتافيزيقا مقاربة تربة التأويل التقني للفكر، إفريقيا الشرق،2002 ، ص50.

21 المرجع السابق ص51.

22 المرجع نفسه، ص52.

23 محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو: منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013، ص248.

24 المرجع السابق، ص249.

25 جوبل هنسل،لفيناس، من الموجود إلى الغير، تر: علي أبو ملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر ط1، 2008، ص44.

26 المرجع السابق، ص ص 250-249.

27 المرجع نفسه، ص250.

28 محمد شوقي الزين، ميشال دو سارتو: منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات، مدخل إلى قراءة تداولية، مرجع سابق، ص250.

29 محمد شوقي الزين، الفكر والفعل في التصور السوسيولوجي عند ميشال دوساررتو، تر: محمد بكاي، سمات، العدد4، ماي 2016، ص396.

30 محمد شوقي الزين، الفكر والفعل في التصور السوسيولوجي عند ميشال دوساررتو، تر: محمد بكاي، مرجع سابق، ص397.